

مكتبتي

(نقلها من أصلها عادل خزون)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ في بعض كنايشه الصغيرة:

الكتب للعالم كالرئة للحَي ، والهواء للنبات ، والماء للأرض ، لا تطيب الحياة بدونها ، ولا يزكو العلم بغيرها ، فهي مفتاح العرفان ، ودليل الإتقان ، فلا غرو أن يعشقها الباحث ، ويتعلق بها المدرس ، لأنها وسيلة الوسائل ، لتحقيق المباحث وتحرير المسائل ، والبعيد عنها كراكب البحر دون مجداف ، وقد أولعت بها وأنا دون بلوغ ، ولا أدري السبب بالضبط ، إلا أنني فتحتُ عيني على خزانة صغيرة لوالدي رحمه الله كانت تضم ما بين المائة والمائتي مجلد ، مُعظمها من كتب الدراسة والفقه والنوازل للحاجة إليها في القضاء والفتوى والتدريس ، وقد رأيتني وأنا أقلب الطرف فيها وهي مصفوفة في الرفوف ، مأخوذا بزخرفتها وعناوينها ، فلم ألبث أن مددت يدي إليها وأخرجت منها ما راقني وجلست أقلب أوراقها وأقرأ منها جملا وسُطورا دون أن أعيها ، وأحسست بدافع يدفعني إلى إعادة التجربة ومع التقدم في الدراسة مع الوالد حُباب إلي النحو وحفظُ شواهد مع معرفة بُحورها التي كانت كلَّ حظي من معرفة العروض فكنت أميز بحور الشعر بمجرد سماعها مستعينا بما أحفظه من أشعار الصوفية بلحونها وأنغامها ، وهكذا أعكفتُ على المكتبة أقرأ وأكدهني ، وإذا عرفت كتابا عند بعض الناس ولم أجده في البيت رغبت إلى الوالد في شرائه ، فكان يبحث عنه ويشتره ، ولا أنسى وصيته لوالدي في مرض موته ، أن تشتري لي ما أطلبه من كتب قاتلا لها : «اشترى له الكتب تعبي الأجر» أي تنال الأجر والثواب ، وتوفي الوالد ووزَّع الورثة الكتب فكان حظي منها قليلا من القليل ، وكان من بينها مخطوطات في القراءات القرآنية والتجويد ، فات معظمها بالبيع للحاجة وهي في خزانة تطوان

العمومية ، ويعتبر الباقي منها نواة المكتبة إلى ما ورثته من أبي مع إخوتي وفيها مجموعة من كتب الفقه والنوازل المطبوعة على الحجر بفاس، وبعد أن بلغت نيّفاً وعشرين سنة تزوجتُ ورشّحني الفقيه القاضي السيد احمد ابن تاويت لتوظيفي كاتباً له لإعجابه بخطي فقبلت ثم أنابني صهري الفقيه التجكاني عنه في الخطابة بجامع العيون ، فتوفّرت لدي القدرة لإشباع همّتي من الكتب ، فكنت أتصيدُها من دلالّي الكتب يومئذ وهما عبد الكريم ملون الغماري وأحمد بن المهدي أمّحاح السعيد، وأحضرتُ دلالتها بجامع لوقش نحو أربع مرات، وبعد أن أصبحت خطيباً وواعظاً رسمياً بالجامع لم أكن أصرف إعانة الحبس إلا في شرائها طيلة خمسين سنة ونيف، وبعد سنوات تجمعت لدي مكتبة لا بأس بها قفزَ عدّها من العشرات إلى المئات ، ثم تزايد بسبب الهدايا والتبرعات من الأفراد والجامعات إلى الآلاف ، وهي الآن (١٤٢٨هـ) نحو ثمانية آلاف عنوان معظمها في العلوم الشرعية خصوصاً التفسير والحديث والفقه يليه التاريخ والأدب وما إليها من علوم الآلة، وقد وضعتُ فهرساً بخطي لما لدي من مخطوطات ومصورات تضمّنها محافظ بلغت ٧٥٤ محفظة دون المخيط والمجلّد ، كما أن ولدي الأكبر أويس حفظه الله يبذل جهود الترتيب والعناية بها ووضّع بطائق مرقمه لها لتسهيل العثور على الطلبة منها ، ولكنه لم يستوعبها كما لم يستوعب فهرستها الطلبة الأربعة الذين انتدبهم الدكتور محمد ابن عبود لذلك، ولما كان لغالب المكتبات المهمة الخاصة والعامة خصائص وميزات وكما قيل يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، فإنني وجدت من بين مقتنيات مكتبتي المتواضعة ما لم أجد له ذكراً في سائر الخزائن التي وقفتُ على فهارسها أو زرتها وهي كثيرة ، منها جزء الحوض وما ورد فيه للإمام بقي بن مخلد رضي الله عنه ولم أرَ من أشار إلى وجوده أو سمع به وقد ذكره ابن خير في الفهرسة مع ذيله لابن بشكوال ، وعلى نسختي الفريدة طبع الجراء بالسعودية، كما أنني أقتني نسخة جيدة من إيراد اللال، لابن خاتمة، وقد طبع مؤخراً بتحقيق الأخ بدر العمراني حفظه الله.

هذه ملامح بينة لوضع مكتبتي ومحتوياتها علماً أنّها في ازدياد وتوسّع نسأل الله الإعانة والتوفيق والسلام .

تطوان في شوال ١٤٢٨هـ